المدينة ببلاد الزاب من خلال المصادر العربية من القرن 5 هـ/11 م إلى القرن 14/08 م

الأستاذ : صلاح الدين هدوش

جامعة باتنة، الجزائر.

الملخص:

انصب اهتمام أغلب الباحثين على المدينة الإسلامية في المشرق الإسلامى وبعض مدن المغرب الإسلامى ذات الأهمية الكبيرة، ولم يعطوا اهتمامًا كبيرًا للبحث حول المدن في المغرب الأوسط، وبالخصوص الناحية الجنوبية الشرقية له، لذلك هدفنا من خلال هذه الدراسة إلى التعريف بالمدينة في بلاد الزاب من القرن (5هـ/ 11م) إلى القرن (8هـ/ 14م) وإبراز خصائصها وميزاتها معتمدين في ذلك على العديد من المصادر التى زودتنا بالمادة العلمية اللازمة، وبالتحديد ما ورد من أخبار ضمتها المؤلفات الجغرافية والتاريخية العربية.

Résumé :

L'intérêt de la majorité des chercheurs s'est focalisé sur la ville islamique à l'orient et certaines villes maghrébines très importantes. Ils ont négligé la recherche sur les villes au Maghreb central et surtout la zone sud-est.

L'objectif de notre recherche est de faire reconnaitre la ville islamique au Ziban du 11 au 14 siècles et de montrer ses caractéristiques en se référant (basant) à plusieurs ressources scientifiques nécessaires notamment les ouvrages arabes, d'ordre géographique et historique.

مقدّمة:

لقد إعتنى المسلمون بتأليف الكتب الجغرافية عناية واضحة، وكانت المدن لديهم بمثابة الركائز التي تستند إليها مؤلفاتهم، وما كان ذلك الإهتمام المبالغ عن عبث، بل هو إهتمام بالمظاهر الحضارية والتجمعات السكانية وكل ما يتعلق بالمدينة، يأتي في مقدمة هؤلاء الجغرافيين العرب أبو عبيد الله البكري المتوفي سنة 487هـ/ 1094م، والذي أعتبر كتابه "المسالك والممالك" مرجعا لكل من جاء بعده من المؤرخين والجغرافيين على حد سواء، وهو من أغنى المصادر الجغرافية التي إهتمت بمدن الزاب لما يقدمه من وصف دقيق لمعالمها العمرانية دون إغفال للجوانب المتعلقة بالظروف الإجتماعية والإقتصادية.

وإضافة إلى كتاب "المسالك والممالك" هناك كتاب "الإستبصار في عجائب الأمصار" لمؤلف مجهول من القرن السادس للهجرة، يقدم لنا مادة جغرافية وأثرية مهمة حيث يسرد سردا دقيقا أغلب أسماء مدن إقليم الزاب معتمدا على من سبقه من الجغرافيين خاصة البكري، فيصف المدن التي رآها وفق ترتيب معين ويقدم الفروق المعتبرة بين المدن الأزلية والقديمة والمحدثة.

كذلك نجد العلامة بن خلدون المتوفى سنة (808هـ) وهو عميد مؤرخي بلاد المغرب الإسلامي وصاحب كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) يعتبر من المؤرخين المسلمين الذي أظهر وأعطى تفاصيل دقيقة حول حدود إقليم الزاب والوضع السياسي والأحداث التي مر بها.

زيادة على الكتب الجغرافية والتاريخية نجد كتب الرحلة الأدبية ونقصد منها كتاب فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب لمؤلفه ابن الحاج النميري (ت768هـ)، والذي أسهم بشكل كبير في مدنا بمعلومات كثيرة عن أهم القصور ببلاد الزاب وخصائصاها ومعالمها وأدوارها،

وإعتمادًا على عديد المصادر العربية سنحاول الإجابة على سؤال جوهري مفاده:
- ما ميزات المدينة ببلاد الزاب من القرن 05هـ/ 11م إلى القرن 08هـ/ 14م؟

1. الإطار الجغرافي لبلاد الزاب

إن تحديد المدلول اللغوي والتطور الجغرافي للزاب على ضوء ما ورد في مختلف المصادر والمراجع العربية خصوصا، أمر صعب على إعتبار أن التسمية لم تستعمل بنفس المعنى اللغوي، ولم تقتصر على جهة واحدة، بل لاحظنا إستعمالها بمعان متعدة، وفي جهات وأقاليم مختلفة من العالم الإسلامي بين المشرق والمغرب، ولم تقتصر للدلالة على إقليم معين بل جاء إطلاق التسمية على الأنهار، والمدن والأشخاص، فمثلا الزاب حسب العديد من الجغرافيين إسم لأنهار بالعراق، وهو كذلك إسم لمدينة النعمانية[1]، والزاب إسم لأقاليم تضم العديد من المدن بالعراق والمغرب والأندلس، مجالها الجغرافي نجده في حقيقة الأمر يتسع ويضيق وتتعدد مدنه من فترة تاريخية إلى أخرى، ومن مؤرخ أو جغرافي إلى آخر، وتسمية الزاب ذكرت كإسم لملك [2]، من ملوك الفرس [3].

1-1- المدلول اللغوي

من الناحية اللغوية ترد مجموعة من التعاريف عند أهل اللغة فابن منظور والفيروز آبادي يذكران في مادة زأب: زأب القربة يزأبها زأباً، وازدأبها: حملها ثم أقبل بها سريعا، وزأب الرجل إذا شرب شرباً شديداً والإبل ساقها [4]، كما ضبط بن خلكان الزاب بفتح الزاي وبعد ألف باء موحدة، وقال إنه كورة بإفريقية [5] وقال ياقوت الحموي زابات بعد الثاني باء موحدة، وآخره تاء مثناة، والزاب بعد ألف باء موحدة، إن جعلناه عربيا، وزاب الشئ إذا جرى، وزاب يزوب إذا انسل هربا، والتثنية زابين [6]، وإذا جمعت قيل لها الزوابي [7] والزاب بهذه التعاريف اللغوية نجد له علاقة كبيرة متصل ومربوط معناه بالماء.

2-1 – المدلول الجغرافي

المجال الجغرافي للزاب المعني بالدراسة من خلال هذا المقال هو نفسه تقريبا المجال الذي يوضحه بشكل دقيق ومفصل العلامة بن خلدون خلال القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد، وحسب ما ذكره في كتابه العبر " يعتبر بلد بسكرة قاعدة وطن الزاب، ويمتد من قصر الدوسن بالغرب إلى قصور تنومة وبادس في المشرق، يفصل بينه وبين البسيط المسمى الحضنة جبل درن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة برقة، ويتصل بشرقيه بجبل أوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الجوف" [8]، ويضيف أن الزاب وطن كبير قاعدته بسكرة يشمل على أقاليم بشكل زوابي متجاورة: " وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعا إلى جمع، يعرف كل واحد منها بالزاب، وأولها زاب دوسن، ثم زاب طولقة، ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودة وزاب بادس وبسكرة أم هذه القرى" [9]. محددا وواضع لحدود الزاب الذي قاعدته بسكرة وأكبر مدنه تهودة، بادس، طولقة، وبنطيوس.

2– أسماء الأمكنة السكانية

من المسميات التي عثرنا عليها بمختلف المصادر الجغرافية والتاريخية المستعملة للدلالة على التجمعات السكانية ببلاد الزاب وجدنا كلمة مدينة بشكل كبير والتي عكست التجمعات كثيرة السكان، والتي تميزت بوجود أغلب المعالم المميزة للمدينة الإسلامية، كإحاطتها بأسوار وخنادق وتعدد مداخلها، إضافة إلى وجود المساجد الجامعة والحمامات والأسواق والفنادق وغيرها، وهي مدن كبيرة بدليل أنها لم تستطع إستيعاب كامل سكانها، فكان هناك فائض سكاني خارج الأسوار سمح بظهور ما يعرف بالأرباض، فوجدنا إستخدام كلمة الربض عند أغلب الجغرافيين في إشارة منهم إلى توابع المدينة وظهيرها الإقتصادي. إضافة إلى لفظ المدينة وجدنا لفظ القصبة [10] .

كقصبة طولقة للإشارة إلى مركز المدينة وشارعها الأعظم وموقع الحركة واللقاء والتبادل فيها، وفي لسان العرب نجد أن قصبة البلد مدينته، والقصبة جوفي الحصن يبنى فيه بناء هو أوسطه، والقصبة القرية، وقصبة القرية وسطها [11].

والقصبة تعني المدينة أو أعظم مدن القطر أو القرية أو وسط القرية ومركزها الحضري، وقد كانت تطلق على إسم الشارع الأعظم في بعض المدن كالقاهرة وأحيانا أطلقت على قطاع مسقوف من هذا الشارع الأعظم كان له صفة تجارية بارزة، وكانت تطلق على المدن الكبيرة.

وهناك إستخدام لكلمة القرية، التي تدل على التجمعات السكانية الأقل عددا من سكان المدن، كما وجدنا كذلك إستخدام كلمة الكورة للتعبير عن مدن إقليم كبير، وهو إقليم الزاب يرفقه إشارة إلى أعظم مدنه وهي مدينة بسكرة [12]، فهذا البكري أول من وصف بسكرة [13]، في القرن 5هـ/ 11م جاء وصفه: " بسكرة كورة بها مدن كثيرة قاعدتها بسكرة" أما الحِميَري فيذكر بسكرة أنها من بلاد الزاب، وهي قاعدة تلك البلاد [14].

فالكورة مصطلح إستعمل في التنظيم الإداري الإسلامي بمعنى قسم إداري، وحسب الأصفهاني الكورة إسم فارسي بحت، يقع على قسم من أقسام الأستان، وقد إستعارتها العرب وجعلتها إسم للأستان، فالكورة والأستان واحد، أما الحموي فيقول الكورة كل صُقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها [15].

فإسم الكورة ترد بما يعني المدينة والصقع، وهو المصر الذي يجمع قرى ومحال، أما ما يدخل في حدودها فيسمى حوزا، أما الرستاق فهو إقليم وقسم إداري أصغر من الكورة، ووحدة زراعية مالية تضم قرى كثيرة، وتقدر عليها الضرائب جملة، وتسمى عاصمة الكورة قاعدة [16].

ويعطينا نص المذكرات الرحلية والأدبية لإبن الحاج النميري معلومات غير قليلة عن طابع القصر الذي ميز بلاد الزاب خلال القرن 8هـ من ناحية المفهوم والدور والوظيفة والتكوين العمراني والمعماري من خلال مجموعة القصور التي

زارها ووصفها، فمن ناحية التسمية أخذت القصور أسماء بعض الشخصيات البارزة مثل قصر يعقوب بن علي بالقنطرة أو أخذت أحد الصفات مثل القصر الجديد بالوطاية، أو التسمية المكانية " الطبوغرافية " مثل قصر فرفر، وقصر بسكرة، ومن ناحية الدور أو الوظيفة المنوطة لهذه القصور فكانت المأوى والملاذ لساكنيها وحاميتهم من الأخطار الخارجية المؤذية، فهي تمتاز بالتحصينات وقوة الإستحكامات الدفاعية والدور المنيعة، كما أنها كانت مخازن الذخيرة والزاد، فذكر النميري أن قصر يعقوب بن علي بالقنطرة الذي أسكنه وخص به يعقوب بن علي صهره عليا بن الحكيم كان مستودعا للذخائر [17]، أما حصن فرفر فكان ليعقوب بن علي وجماهر أولاد محمد الذخر الأعظم والملجأ الأكرم والعتاد الأفخر الأفخم، معدن أحسابهم ومجمع منتفعاتهم وملاذهم إذا أمحلت البلاد، وركنهم إذا إفتقروا إلى الأزواد [18].

– عناصر السكان

طبقا لما ذكره المؤرخ اليعقوبي فإن أهم عناصر سكان المغرب تتألف من البربر والعرب والروم والأفارقة، والمعروف أن عنصر الروم كان قد انصهر مع البربر بمرور الزمن، ولم يبق منهم أي أثر يذكر خلال القرنين الرابع والخامس هجريين/ العاشر والحادي عشر ميلاديين [19].

وهو الأمر ذاته بالنسبة للتركيبة البشرية لبلاد الزاب الذي كان متنوعا يشمل مجموعات مختلفة من عرب وبربر وفرس وروم وأفارقة [20].فالمعطيات المتوفرة لنا تبين أن النسيج الإجتماعي لمنطقة الزاب يتسم بطابع فسيفسائي ميزته الأساسية تعدد عناصر سكان مدنه على النحو التالي:

3-1- البربر والأفارقة

كان الزاب مضرب قبائل زناتة التي إنتشرت فيما بين المسيلة وبسكرة وجبل أوراس ونقاوس وطبنة وباغاي وسطيف، وكانت أبرز هذه القبائل هوارة وبنو يفرن [21]. التي كانت تقيم بين جبل أوراس والغدير وتهودة ومنطقة المسيلة، أما قبيلة أوربة فقد إستقرت بنواحي بسكرة، إضافة إلى قبيلة مغراو [22]، ناحية

مدينة الدوسن [23] وجراوة [24] وسدراتة [25] بباقي الإقليم، وقد تعربت بعض العناصر البربرية ودخلت الإسلام بحكم تحالفها مع العرب المسلمين برباط الولاء، كما نجد الأفارقة وهم إفريقيون من أصل بربري لكنهم تأثروا بالحضارة الرومانية وتنصروا وأصبحوا يمثلون ما بقي من جذور الحضارة اللاتينية [26].

3-2- الروم والبيزنطيين

إضافة إلى البربر نجد من العناصر المحلية الروم [27] أو البيزنطيين الذين بقوا في الزاب بعد الإنتشار وكانوا قبل التعريب، وكان لهم دور في المجال الفلاحي والتجاري في المنطقة، وكانوا يعتبرون أهل ذمة ويدفعون على هذا الأساس الجزية على رقابهم والخراج على أراضيهم [28] .

3-3- العرب

يتكون المجتمع بإقليم الزاب حتى القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) من مجموعة عناصر وأجناس مختلفة مما يجعله غير متجانس، الأغلبية الساحقة من السكان هم أهل البلاد من بربر وروم وأفارقة بينما تشتمل الأقلية التي إستقرت في الزاب إثر عمليات إنتشار العرب والفرس وبعض الموالي، فنجد من العناصر الغير عربية الفرس والموالي قدموا من خرسان في الفترة العباسية [29]، شاركوا العرب في السيطرة على ضبط البلاد وكانوا متواجدين بإقليم الزاب مثل مدن طولقة وبنطيوس [30].

ومع القرن الخامس للهجرة أصبحت العناصر الهلالية تؤلف أحد العناصر الرئيسية لسكان الزاب، فمن بين تشكيلات هذه القبيلة [31]، نذكر الأثبج وزغبة الذين عاشوا في منطقة الزاب [32].فضلا عن التشكيلات القبلية السابقة، فقد كان عنصر عرب الفتح من القريشيين قد استقروا بتهودة، على حين استقر بعض اليمنيين والقيسيين بطولقة، وبنو جرف ببنطيوس وهم من أصل فارسي [33].

4- المياه وتقنيات الإستغلال

الموقع عامل هام في مراحل النمو العمراني، يكون ذلك الموقع إيجابيا في حال توافر الشروط المطلوبة والمساعدة في تغطية حاجات السكان أو على الأقل

أنه يوفر حدودا معقولة ودون أن يهبط للحدود الدنيا أمام متطلبات السكان التي من الطبيعي أن تزداد يوما بعد يوم، وعلى العكس تماما فإن كان الموقع سلبيا في حال عدم القدرة على تحقيق حتى الحدود الدنيا أو حتى قلة من الشروط المطلوب توافرها كي تنمو المدن خاصة وتحافظ على استمرارها، فوقوع مدينة ما في منطقة سهلية وتحيط بها سهول واسعة، هو عامل إيجابي ورئيس ويساعد في إمتداد المدينة في المستقبل في كل جهاتها ويؤمن لها ظهيرا زراعيا يؤمن حاجيات السكان الغذائية، ويكون العكس صحيح في حال أن تشغل المدينة حيزا سهليا صغيرا وتحيط بها من جميع الجهات تضاريس وجبال ذات سفوح حادة ومتطاولة والتي من المؤكد أنها لا تساعد على الإمتداد العمراني وتوسع رقعة المدينة، فتكون التضاريس ذات الميول القاسية قد شكلت عوامل سلبية تحد من امتداد رقعة المدينة السكنية، وتصبح تلك التضاريس مطلوبة وتشكل عوامل إيجابية في حال إستخدامها كعوامل دفاع وحماية يلجأ إليها السكان للدفاع عن مدينتهم ولحماية أنفسهم في حالة الحرب والخوف من العدو [34].

والكثير من الباحثين يرون أن هناك ضروريات وعوامل لنشوء المدن كضرورة الغذاء والمسكن والعبادة والتبادل والتعاون والدفاع إستوجبت إيجاد أرض تتوفر فيها شروط الحياة الإجتماعية من مياه، تربة للزراعة، هواء طيب، ومسالك للإتصال، وهي ضروريات تتوفر ببلاد الزاب سنحاول توضيحها، والبداية تكون بالماء الذي به الحياة مصداقا لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي [35].

لقد حددت الظروف البيئية مواقع الإقامة والإستقرار في الزاب، بحيث أدت إلى أن يتميز مجتمعها بتوزيع جغرافي يتلاءم مع توزيع مراكز الإستقرار والأراضي الغنية بالمياه، والتي تقوم عليها واحات النخيل التي تعتبر المصدر الأساسي لرزق معظم السكان [36].

فالماء هو المحرك لحياة الإنسان ومحدد العمران وروح المكان، وهو نقطة الإرتكاز الحقيقية أو نكاد نقول الوحيدة لإستيطان المجتمعات وعمران المكان،

والماء من العناصر الهامة في نشأة وتطور المدن فلا يمكن إقامة أي تجمع بشري دون توفر هذا الشرط الحيوي، لذلك نجد مجمل المدن في المغرب الإسلامي عموما جاءت في أماكن قريبة من المجاري المائية الكبرى أو إحدى روافدها أوبالقرب من عيون جارية، ومنطقة الزاب مثل مجمل هذه المدن، تعكس أهميتها وغناها بالمياه الذي نستشفه من خلال المدلول اللغوي شديد الإرتباط بالماء ووفرته وقوة جريانه ومن خلال ما ذكره صاحب الإستبصار "بلاد الزاب مدن كثيرة وأنظار واسعة وعمائر متصلة، فيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة" [37]، الأمر الذي أسهم في ظهور العمران وإمتداده، وهي منطقة تختص عن العديد من الأقاليم المجاورة بكونها ترتكز على نشاط رئيسي وهو الزراعة التي ساهم في إحيائها على مر الزمن غنى المنطقة بالمياه السطحية والجوفية، واللذان ساهما بدورهما بشكل كبير في استقرار الإنسان [38].

ومن خلال مختلف المصادر الجغرافية والتاريخية العربية يمكن أن نوضح بعض النقاط الرئيسة والتي كانت وراء تكوّن وإستقرار وإستمرار التجمعات السكانية ببلاد الزاب، والتي جعلت المنطقة مطمع الطامعين للسيطرة عليها، حيث كانت المنطقة على أهمية كبيرة، نظرا لما تجود به هذه المنطقة من خيرات وميزات تساعد على الإستقرار البشري، وما هو أكيد أن منطقة الزاب غنية بمصادر المياه التي ساعدت على الإستقرار البشري والنشاط الزراعي وحتى الإستخدام الدفاعي [39]، (الأمني) [40].

فالبكري يذكر أن داخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبةّ، وبمسجدها الجامع بئر لا تنزف أي لا تجف وتمنع، وبها جنان يدخل إليها الماء من النهر الذي قد شقت منه قنوات لري جنان المدينة [41]، فهذه الأخيرة توفر لسكانها المياه الصاحة للشرب، فإضافة إلى وجود الآبار العذبة بشكل كبير هناك إشارة أخرى من قبل البكري إلى أن سكان مدينة بسكرة كانوا يعتمدون في شربهم على نهر كبير يجري في جوفيها، منحدر من جبال الأوراس [42]. أما مدينة تهودة [43].

المعروفة ببساتينها الكثيرة حسب البكري كانت تسقى من نهر يصب فيها ينحدر كذلك مجراه من جبل أوراس [44].

وتستعمل مياهه لغرض الشرب، هذا بالإضافة إلى أن المدينة غنية بالآبار ذات المياه العذبة، وهي على نوعين: آبار أولية لا تنزح وأخرى مستحدثة طيبة [45].ويبدو أن أغلب أراضي الزاب كانت تسقى من مياه الأنهار، فالشئ نفسه نلاحظه بالنسبة لمدن طولقة وما كان من حولها من أنهار [46]، والأمر ذاته بالنسبة لمدن بنطيوس الثلاثة كان يسقيها نهر جار من جهتها الغربية [47]، وبها آبار غير صالحة للشرب [48]، أما مدينة بادس فوصفها صاحب الإستبصار بأن مياهها سائحة [49].

إن للماء دائما الدور الرئيس في عملية ظهور المدن وتوضعها ونموها، وارتبط نمو عدد السكان وامتداد رقعة المدينة باستمرار تدفق الماء وكفايته، وإذا أسقطنا شرط سعة المياه – من بين الشروط المهمة لمواقع المدن [50].

على إقليم الزاب نجدها تمتاز بوفرة الماء الذي تمدها بها الآبار المختلفة منها الأولية القديمة ومنها المستحدثة ومنها الطيبة العذبة ومنها المالحة، إضافة إلى الوديان والمجاري التي تشق إقليم الزاب خاصة تلك القادمة من أعالي جبال أوراس والتي لا تزال تمثل إلى اليوم أهم مصادر المياه السطحية بالزاب، حيث تلبي حاجات سكانها سواء للشرب أو لسقي المزارع الواسعة [51].

لقد تم العمل على إيصال الماء إلى المدينة بإقليم الزاب حتى يسهل على سكانها الحصول عليه دون عسف، وذلك بوضع شبكات توصيل الماء إلى جميع الأحياء، وخير دليل مدينة بسكرة التي ربطت بقنوات شقت من النهر المجاور لها، وهذا لا يعني أن الماء متوفر بشكل كاف في كل إقليم الزاب، بل هناك بعض المناطق والمدن عانت من قلة المياه خصوصا المياه الموجهة للسقي والتي تزيد الحاجة إليها في الفصول الحارة، فيقع النزاع بين السكان والخصومات إلى حد الإقتتال، ونلمس مثال ذلك ما جاء عند الوزان حول فلاحي مدينة البرج [53].

فذكر: " نظرا لقلة الماء بها –مدينة البرج- فإن كل فلاح على انفراد يجلب الماء الى حقله ساعة أو ساعتين من النهار حسب سعة أرضه، وذلك من القناة التي تمد الحقول، ولهؤلاء الفلاحين ساعات مائية يملؤونها، وعندما تفرغ يكون وقت السقي المخصص لهم قد انتهى، ولا يحق للمستفيد من الماء أن يحتفظ به حينئذ، وكثيرا ما تهيج الخصومات بينهم بسبب ذلك ويسقط القتلى [54].

ويتضح أن إستغلال المياه المخصصة للفلاحة بالمنطقة كان يتم باحتساب الزمن عن طريق ساعات مائية لا ندري طريقة عملها، وتبدو أنها خزانات تملأ بالماء بسعة معينة، وتفقد مياهاه خلال فترة معينة من ساعة إلى ساعتين، ويتم التناوب في إستغلال مياه قنوات السقي حسب الوقت المخصص لكل فلاح وحسب الترتيب المعتمد بين الفلاحين.

5- الإقتصاد

تدل المعلومات القليلة المتوفرة لدينا على أن إقتصاد إالزاب الذي ساعد على الإستقرار الإنساني خلال العهد الإسلامي – من القرن الخامس حتى القرن الثامن للهجرة- كان يقوم أساسا على الزراعة والتجارة، أما الصناعة فقد كانت ثانوية، والإنتاج الزراعي الرئيسي في إقليم الزاب في العصر الإسلامي هو التمر الذي كان يمثل الإنتاج الأهم والغذاء الشعبي الرئيسي، إضافة إلى الحبوب كالقمح والشعير، ومجموعة من الأشجار المثمرة كالزيتون، الكروم، الرمان، إضافة إلى التجارة خصوصا تجارة الملح [55].

5-1- الزراعة

من البدهي القول إن ركائز العمران بالمنطقة الصحراوية هي البنية الإقتصادية المستندة على الزراعة السقوية بالواحة [56].والتجارة الصحراوية ، والحديث عن الزراعة بها مقترن شديد الإقتران بالنخل، حيث تعتبر زراعة النخيل الزراعة الشعبية التي إختصت بها هذه المنطقة، وارتبط بها السكان عبر زمن طويل، فكانت مصدر رزقهم وتجارتهم، ويقتصر وجود واحات النخيل على المجال الصحراوي الذي يتوفر فيه الماء، وبالتالي فإن توزيع الواحات لا يكاد يختلف عن

التوزيع الحالي، فبلاد الزاب تمثل قسم كبير من هذه الواحات الصحراوية [57].توفر إقليم الزاب على عوامل متعددة أسهمت في ظهور النشاط الزراعي وتطوره فيها على نطاق واسع، فإضافة إلى الإستقرار البشري وتوفر مصادر المياه الضرورية من الآبار والعيون والأنهار وشق القنوات المائية، هناك مناخ وتربة [57]، خصبة ملائمين للزراعة والإستغلال، فكانت المنطقة محاطة بأراض زراعية نادرة المثال في الصحراء [58]، عرفت منذ القديم بواحات نخيلها وشهدت حركة نشيطة في المجال الإقتصادي ميزها إزدهار الزراعة بشكل عام وبخاصة زراعة النخيل [59].

ويؤكد ذلك الجغرافيون والمؤرخون أمثال البكري، صاحب الإستبصار،الحموي، الوزان، الإدريسي، ابن حوقل وغيرهم كثر نضيف القلقشندي والنميري، وقد حاولنا الإعتماد على مختلف هذه المصادر لتقديم صورة عن أنواع الزرع والإنتاج ببلاد الزاب من القرن الخامس الهجري وحتى القرن الثامن للهجرة، وتأسيسا على ما سبق من أقوال البكري وغيره يمكن تصنيف أنواع المزروعات فيما يلي:

أ- التمر

بطبيعة الحال هو في المرتبة الأولى، وكان المحصول الرئيسي، وتوضح المصادر أن التمور أهم المنتجات الزراعية في الزاب، كما أكدت إنتشار النخيل في مواقع مختلفة وحددت لنا نوعيتها، فقد اشتهرت بزراعتها وانتاج محاصيلها بشكل كبير طولقة وبسكرة النخيل [60]، لقد كانت مدينة بسكرة [61] وباقي المناطق والمدن المجاورة لها قد إشتهرت بغاباتها وبساتينها الكثيرة، فمدينة بسكرة من خلال كتاب المسالك والممالك للبكري هي مدينة كثيرة النخل وحولها بساتين كثيرة، وهي في غابة كبيرة مقدار ستة أميال أي أكثر من 9.5 كلم، وتنتج هذه الغابة أجناس وأنواع التمور المختلفة، لدرجة أن أضيف إلى إسم المدينة صفة الثمرة المشهورة بها فعرفت ببسكرة النخيل [62]. وببسكرة النخل لكثرته فيها في العديد من المصادر [63].

ويذكرها صاحب الإستبصار " ببسكرة النخل لكثرته بها، وفي جميع البلاد إنما يصيحون عليه (بسكرة) [64]، والوضع نفسه بالنسبة لمدن تهودة وبنطيوس وطولقة، وبادس، فقد كانت أكثر ثمارها النخل، محاطة ببساتين كثيرة [65]. وكان تمر إقليم الزاب يتمتع بشهرة خاصة [66]، لكن لم تصلنا معلومات كثيرة عن كميات إنتاج التمور بالمنطقة في العصر الوسيط، فهذا البكري ذكر أن أكثر ثمار بنطيوس هي النخل، وقال بن سعيد أن من بسكرة تجلب التمر إلى حاضرة تونس وبجاية، وقال ياقوت أن في بسكرة نخل وشجر وقسب جيد، وقال القلقشندي أن ببسكرة نخل كثير ومنها يجلب التمر الطيب إلى تونس وبجاية [67].لكن رغم ذلك تبين لنا ما اشتهرت به مدن الزاب من إنتاجها لكميات التمر ذي الجودة العالية، ومن أجناس مختلفة [68].

منها جنس كان يعرف بالكُسْبا والصيحاني [69]، يضرب به المثل لفضله عن غيره [70] ، وجنس يعرف بالليلاري أبيض أملس، وقد كان عبيد الله الشيعي يأمر عماله بالمنع عن بيعه والتحظير عليه، وبعث ما هنالك منه إليه [71]، لطيبه وحسنه (72).

ب- الفواكه و الحبوب

إلى جانب التمور تبين المصادر المتاحة أن إقليم الزاب عرفت إنتاج الفواكه مثل الكروم، الزيتون، العنب، فبسكرة حسب البكري هي مدينة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار، وإشتهرت كذلك بكثرة الأعناب، أما تهودة تجود بالزرع، والزيتون، والأعناب وجميع الثمار [73]، وطولقة التي إشتهرت بإنتاج أجود أنواع التمر كانت تزرع بها العديد من الأشجار المثمرة مثل الكروم، الزيتون، والعنب [74]، أما بادس فجاء عند صاحب الإستبصار "بسائط كثيرة ومزارع جليلة، بها نخل كثير وجميع الفواكه والثمار [75].

مما أسهم أكثر في تحريك تجارتها ورفاهية معيشة السكان، خاصة أن المنطقة ضمن إقليم الزاب تتوسط المحور التجاري: الصحراء – التل [76]، فعرف الزاب حركة تجارية داخلية بين السكان أسفرت عن ظهور أسواق محلية، وحركة تجارية

خارجية مع مختلف القوافل التجارية [77]، فكان بروز المنشآت والمرافق الإقتصادية التي ساهمت في توسيع الحركة التجارية ونمو العمران.

من جانب آخر فقد أشارت المصادر إلى إنتشار زراعة أنواع من الحبوب مثل القمح والشعير من خلال التأكيد على وجود بعض الزروع وانتشارها فيها، فبسكرة التي تقع على نهر عظيم سمح بتوفير الري للمنطقة، إشتهرت بزراعة الحنطة، وكان القمح يزرع مرتين في السنة، وبادس عرفت ببسائطها الكثيرة ومزارعها الجليلة يزرع بها الشعير مرتين في السنة على مياه سائحة [78]، أما تهودة فقال البكري أنها تجود بالزرع [79].

لقد تميز إقليم الزاب بسعة مياهه وكثرة محاصيله وكثافة زراعاته وواحاته، هذه الأخيرة التي كانت مصدرا هاما للغذاء وحققت إمكانية الميرة المستمرة وهو شرط أساسي في ازدهار الحياة ورفاهية السكان، ولأن توفر الغذاء مطلب أساسي لنشأة المدن واستمرار نموها فإن التجمعات السكانية باللزاب توفرت على محصول هائل من الثمار والحبوب التي تكفي لسد حاجة سكانها وأكثر، فكان سكان الزاب يقومون بتخزين ما يزيد عن الحاجة تحسبا لأي طارئ مثل نشوب حروب أو وقوع حصار– خير دليل على ذلك القصور التي وصفها النميري بالمخازن عند الحروب–، وكانوا يعتمدون على إقليمهم الذي ينتج محاصيل كبيرة في السنين المطيرة، فضلا على استغلال مياه الأودية لري زراعاتهم، مما يزيد من وفرة الإنتاج، وكانت المدن تعتمد على الطرق والمسالك التجارية لتزويدها بالكثير من السلع والإحتياجات من المناطق المجاورة ، لذلك فإن المدينة بإقليم الزاب عاشت مستوى إقتصادي مزدهرًا.

5-2- الصناعة

كما مثلت الصناعة أحد الأنشطة الإقتصادية الهامة، فقد وجد الملح ببسكرة والقطن وقصب السكر والكتان الجيد [80]، وغيرها من المحاصيل الزراعية القابلة للتحويل [81]، فالقسب ذكر عند ياقوت الحموي بنوعيته الجيدة [82]،

وعرفت مدينة البرج حسب الوزان أنها مدينة متحضرة كثيرة السكان، يوجد بها عدد كبير من الصناع[83].

5-3- التجارة

تعتبر بلاد الزاب من الأسواق الهامة خلال العصر الإسلامي، لوقوعها على الطريق الرابط بين القيروان والزاب حيث يمكن التوجه إلى طبنة من بسكرة مباشرة وإلى تهودة كذلك، ومن تهودة يمكن الإنتقال إلى مدينة باغاي التي تبعد عن بسكرة بأربعة أيام، وهذا الطريق الذي يربط المدينتين يجتاز الأوراس [84].

وهناك طريق تربط المسيلة بالجريد مرورا ببسكرة، وبأشير والشلف مرورا بمليانة إلى أن يصل إلى تلمسان وفاس [85]، كما إرتبط الزاب بمناطق أخرى الطريق التجاري الذي يربط سجلماسة بوجدة فتلمسان وتاهرت، ومنها إلى بلاد الزاب وقسطيليلة [86]، ومن بلاد الجريد إلى القيروان عن طريق قفصة ثم إلى مدن الساحل التونسي من جهة أو إلى طريق طرابلس عن طريق نفزاوة ثم برقة فمصر [87].

ولا شك أن لإشتهار الزاب بمعدن الملح مع النشاط الزراعي وكثرة محاصيله وتنوعها خصوصا التمور، الزيتون، الكروم و الحبوب [88].أثره في إحياء الأسواق التجارية وزيادة حركية التجارة، فالبكري وياقوت الحموي يشيران إلى أن ما زاد من قيمة بلاد الزاب الإقتصادية هو إشتهار مدينة بسكرة بجبل الملح، هذا الجبل كان يقطع منه الملح [89]، ومنه على سبيل المثال كان عبيد الله الشيعي وبنوه يستعملونه في أطعمتهم [90]، كما إشتهرت مدينة بسكرة إضافة إلى نخيلها الذي ينتج أجود أنواع التمور بقسبها الذي عرف بنوعيته الجيدة [91].

6- المعالم العمرانية لمدن الزاب

تتكون مدن الزاب من مجموعة من المعالم العمرانية التي تتشكل منها في الغالب باقي المدن في العالم الإسلامي وهي:

6-1- المعالم العسكرية

الخاصية التي ميزت المدن عند الجغرافيين الكبار؛ والتي أشاروا إليها كثيرا ولم يغفلوها هي التحصين، فقد إهتم الجغرافيون بالتحصين وذكروه بوضوح كبير، كأنهم إعتبروه من عناصر تكوين المدينة الآمنة، فالأمن عامل أساسي في المحافظة على البنيان والخيرات والتجارات وبالتالي في ضمان إستمرار المدينة وبقائها، وتوافر وسائل الأمن من سور وحصن وخندق كان دوما يلفت أنظار الجغرافيين وأصحاب البحث المدني وكذا نوع مادة بنائها من حجر أو طين أو غيرها من المواد الإنشائية.

إن المدن التي تتطلب التحصين في العادة هي المدن المهددة كالثغور والمرافئ والمدن الغنية التي تطمع الطامعين بالحكم أو النهب، والمدن التي تخرج عن هذا النطاق قليلة ومحدودة، ومدن الزاب هي من المدن الغنية بخيراتها وتسيل لعاب الطامعين فيها، لذلك ظهرت الإستحكامات الدفاعية بشكل بارز لفت إنتباه الرحالة والجغرافيين من خلال كتاباتهم التي أشاروا بها إلى أن أغلب المدن ببلاد الزاب كانت محصنة على الأقل بسور أو سورين إضاف إلى خندق أو أكثر.

وعلى إعتبار أن الزاب يتميز بالإنبساط وقلة الجبال والمرتفعات التي يمكن أن يجعل منها المجتمع الزابي تحصينا طبيعيا لمراكز إستقراره، وأن إنسان المنطقة لا يستطيع الإبتعاد عن منابع المياه أي مجبر على البقاء بالقرب من مصادر المياه، لذلك عرفت مدنه التي تتميز بمناخ جاف وبطبيعة غير جبلية ظهور الأسوار الدفاعية، فأشار البكري وصاحب الإستبصار وغيرهم إلى أن وجود أسوار تحيط بالمدن ومرافقها العمرانية، لكن المصادر المتاحة لا تسعفنا في معرفة معلومات دقيقة عن تاريخ بناء هذه الأسوار.

فجاء عند البكري وصفه لمدن الزاب إحتواء أغلبها على وسائل دفاعية مهمة كالسور والخندق، فذكر بسكرة قاعدة الزاب، وأعظم مدنه كانت مسورة عليها خندق، ونفس الخاصية بالنسبة لمدن بنطيوس كان عليها أسوار وخنادق، وهو الحال بالنسبة لمدن طولقة المتشكلة من ثلاث مدن أحيطت كلها بخنادق وأسوار [92]، ومدينة بادس [93] كان لها حصنان [94]، فهي تعتبر بمثابة المدينة

الحصن [95]، ومدينة تهودة مدينة أزلية بنيانها بالحجارة [96] ، عليها سور [97]. وخندق كان سكانها إذا كان بينهم وبين من يجاورهم حرب أرسوا ماء النهر في الخندق المحيط فامتنعوا به من عدوهم [98]. فالمدينة ببلاد الزاب أحيطت بأسوار قوية ودعمت بخنادق فجاءت بسور وخندق وسورين وخندق وسور وخندقين و سور وخنادق.

وتعطينا المصادر معلومات عن مواد البناء المستخدمة في بناء الأسوار دون أن تبين التقنيات المستخدمة في ذلك، حيث وجدنا تباين في استخدام مواد البناء تراوحت بين الآجر والحجر والطوب، فمن بين المدن التي استخدمت الطوب في بناء أسوارها نذكر مدينة طولقة وبنطيوس [99] ولاحظنا إستخدام الآجر في بناء سور مدينة بسكرة [100] ، والحجارة شكلت مادة البناء الأساسية لأسوار مدينة تهودة" [101].

وهذا التنوع في المواد يرتبط بالمحيط الجغرافي الذي وجدت فيه [102]، إضافة الى إستخدام مخلفات المجتمعات والحضارات السابقة كوسائل دفاعية جاهزة أو مواد بنائها إن كانت غير صالحة للإستحكام الدفاعي، مثال ذلك مدينة بادس التي وصفها الجغرافيون كصاحب الإستبصار بأنها "مدينة كبيرة لها حصنان، وهي مدينة قديمة فيها آثار للأولين [103].

أما تهودة فقال: " مدينة قديمة أزلية عليها سور عظيم مبني بالحجر الجليل" [104] ، ويذكر المراكشي: " تهودة بنيانها من الحجارة [105].

إضافة إلى هذه المنشآت العسكرية المتمثلة في الأسوار والخنادق، واستكمالا الى ما ذكرناه سابقا ، كانت أسوار المدينة بمنطقة الزاب تحتوي على مداخل وأبواب رئيسية تعكس الطابع العسكري للسيطرة على الحركة من وإلى المدينة، وتبين الوظائف الإجتماعية والإقتصادية، وأسهمت الأبواب في التعريف باسم الجهة التي تنطلق إليها محاور الحركة الرئيسة داخل المدينة وخارجها كما كان الحال عند مدينة بسكرة فقد إحتوت على أبواب متعددة شكلت مداخل المدينة، وأخذت تسميتها من الأماكن التي تضفي إليها، فهناك باب أول عرف بباب المقبرة أي أنه يضفي إلى

المقبرة، والثاني هو باب الحمام أي أنه يضفي إلى الحمام – الذي يعتبر من المنشآت الرئيسية داخل المدينة الإسلامية لما له من أهمية في الطهارة– ، وباب ثالث لم يذكر إسمه [106]، يسكنه المولدون [107].

ومما يلفت النظر في خصائص المدن ببلاد الزاب إحتوائها على الأرباض خارج أسوارها، وإستعملت كلمات كثيرة تشير إلى توابع المدينة، كالريف، الضيعة، الضاحية، والربض، هذه الأخيرة يرد ذكرها للدلالة على توابع المدن ببلاد الزاب، فالربض هو ما حول المدينة أي أنه تابع من توابعها خارج كتلتها السكنية أو أسوارها، فهو من سمات فيضان السكان عن المدن الكبيرة [108]، واستنادا الى ما ذكره الجغرافيون العرب وفي طليعتهم البكري وصاحب الإستبصار تتوضح لنا الأرباض خارج أسوار مدينة بسكرة وخارج خندق مدينة تهودة التي عرفت بأرباضها الكثيرة التي يدور حولها خندق، ولمدينة بادس أرباض واسعة [109]، وهذا دليل على عدد السكان الكبير لهذه المدن مقارنة بباقي مدن الإقليم.

6-2 – المعالم الدينية

كون المدينة الإسلامية لا تقوم بدون مسجد جامع، نجد هذه المنشأة في جميع المدن كبيرها وصغيرها على الإطلاق، كما نجده في القرى الكبيرة والقصور، وقد أبرز الجغرافيون المسلمون وجوده في كل تجمع سكاني حضري واعتبروه شرطا من شروط المدن [110].

فبعد الفتح الإسلامي لبلاد الزاب إنتشرت المساجد بشكل كبير لما لها من أدوار متعددة تعبدية وتعليمية وإجتماعية وغيرها، فمدينة بسكرة إحتوت على مسجد جامع ومساجد كثيرة تخص مختلف الخطط والأحياء، ومدن بنطيوس الثلاثة كان لكل واحد منها جامع، وبتهودة جامع جليل ومساجد كثيرة [111].

وإشتهرت بادس بتوفرها على جامع، وهنا يعيب على المصادر الجغرافية غياب الوصف الدقيق للمساجد من حيث أقسامها المعمارية وموادها البنائية ومساحتها وتاريخ إنشائها واكتفوا بذكر وجودها أو عددها فقط.

6-3- المعالم المدنية

العامل الأساسي الذي يميز التجمعات الحضرية الإسلامية هو بنيتها الإجتماعية التي تتكون في غالب الأحيان من جملة من المجموعات البشرية المختلفة الأصل واللغة والدين أحيانا أيضا، مما يشجع على نشوء الأحياء المختصة الشبه مستقلة [112].

بشكل سكنات متعددة ومنظمة تجمع كل مجموعة سكنية مجموعة بشرية ذات أصل واحد في حيز محدد، وهذه التجمعات تعتبر عنصر أساسي وضروري مكون للتركيبة العمرانية للمدينة الإسلامية من دونه لا وجود للمدينة، ويلاحظ الباحث في مجال العمران الإسلامي أن بعض المدن الإسلامية كانت تحتوي على أحياء عديدة خاصة بالمهاجرين إليها من مواقع أخرى، وهي تحمل أسماء أصحابها [113]، وبتفحص ما جاء في المصادر الجغرافية العربية حول التجمعات البشرية ببلاد الزاب نجد هذا الأمر جليا كما هو الحال بالنسبة لمدن بنطيوس الثلاثة إحداها يسكنها قوم من الفرس يعرفون بني حُرَيج، والثانية يسكنها المولدون [114].

والثالثة يسكنها البربر، وهم على مذاهب مختلفة منهم من هم خوارج يعرفون بالواصلية إباضية، ومنهم من هم على المذهب السني. وعرفت مدينة طولقة عاملا أساسيا ساهم في تعميرها، وهو عامل الهجرة، فقد سكن بالمنطقة عدد من عرب الفتح والجند العربي من أهل السنة اليمنيين والقيسيين، والذين بنوا لهم دورا من الطوب [115].

وشكلو لهم مدنا، فكانت طولقة مشكلة من ثلاثة مدن، واحدة يسكنها المولدون [116]، والثانية يسكنها اليمنيون، والثالثة يسكنها القيسيون، وعملوا بالزراعة فكانت المنطقة تتشكل من واحات النخيل والأشجار المثمرة، وبذلك إزداد عدد سكان المدينة، وتوسع عمرانها وأحيائها السكنية، أما تهودا فكان سكانها العرب وقوم من قريش [117]، ويسكنها قوم من البربر [118].

وهناك منشآت مدنية أخرى يتميز بها العمران الإسلامي ببلاد الزاب ذات المنفعة العامة، منها مثلا أن مدينة بسكرة كانت بها الأسواق والحمامات التي كانت موضع إهتمام من قبل المسلمين، ووجود الأسواق والحمامات بمدينة بسكرة دليل على أهميتها والعدد الكبير لساكنيها، فياقوت الحموي يشير في وصفه لمدينة بسكرة على أنها مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات [119]، وكان أحد مداخل المدينة يضفي إلى أحد الحمامات فسمي باب الحمام، لكن وللأسف الشديد تغيب عنا المعلومات الكافية عن عدد هذه الحمامات، إضافة إلى غياب وصف مخططاتها، ومن يقوم على خدمتها [120]، وهل مياهها حارة طبيعيا أم يتم تدفئتها عن طريق الوقود الذي نجهل طبيعته، هل هو من الزبل اليابس مثلا أم من ما تقدمه الواحة من أخشاب الأشجار وجذوع النخل وكرنافه.

وتحتوي مدينة تهودة التي وصفها البكري بأموالها الكثيرة، على فنادق [121]، كبار [122]، كانت بالأخص بمثابة سكن للتجار في المدينة، وهذا بإعتبار أن المدينة كانت معبرا ونقطة مهمة للقوافل التجارية تحتوي على أسواق كثيرة [123]. قد يستعمل التجار هذه الفنادق للنوم، وليضعوا بها بضاعتهم.

ولأنه من الضروري أن يكون لكل مدينة أو قرية موضع مخصص لدفن الموتى، إحتوت المدينة ببلاد الزاب على المقابر لدفن الموتى، وهو ما تأكد في تخطيطها العمراني، حيث كان مثلا لأهل مدينة بسكرة مساحة من الأرض مخصصة لدفن الموتى من سكانها، فكان أحد أبواب المدينة يضفي إلى المقبرة [124].

الخاتمة

وفي ختام هذا الموضوع نجد أن عمران بلاد الزاب من القرن 5هـ/ 11م إلى القرن 9ه/ 15م عرف تطورا عمرانيا كبيرا، ويعد تأسيس المدن أبرز سماته، التي تميزت بتخطيطها العمراني الذي يتوافق مع تخطيط المدينة الإسلامية، بوجود جل المعالم العمرانية من معالم عسكرية ودينية ومدنية، فهذه الفترة هي فترة إزدهار حضاري وعمراني، وعلى الرغم مما إمتاز به المؤرخون والجغرافيون من وصف دقيق إلا أنه يعاب عليهم غياب الوصف الدقيق لمعالم المدينة والقصر ببلاد الزاب خصوصا الأسوار والمساجد والأسواق والشوارع والدروب من ناحية التخطيط وتاريخ البناء وتقنيات الإنشاء، كما عرف إقتصاد الزاب خلال الفترة تطورا كبيرا شمل الميادين الزراعية والتجارية وحتى الصناعية، لكن بقيت الفلاحة أثناء هذه الفترة العمود الفقري، حيث زراعة النخيل الأكثر تواجدا ، ونجد زراعة الحبوب ، وغراسة الأشجار خاصة الزيتون والفواكه المنتشرة، أسهمت بشكل كبير في إستمرار نمو العمران وتطوره.

❖ هوامش البحث

(1) حسب محمد عبد المنعم الحِميري هذه المدينة عرفت بمدينة الزاب، بينها وبين هيت ستة وثلاثون ميلا، وهي مدينة عامرة ذات قرى وبساتين وعمارة، وهي ما بين المدائن وواسط، وحسب اليعقوبي هي مدينة الزاب الأعلى، أنظر: - الحِميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ط 02، ص 281، أنظر كذلك: - اليعقوبي: البلدان، تحقيق: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 321.

(2) زاب ملك من قدماء ملوك الفرس، وهو زاب بن توركمان بن منوشَهر إبن إيرج بن إفريدون، حفر عدة أنهر بالعراق فسميت بإسمه، وربما قيل لكل واحد زابي، أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، م03، دار صادر، بيروت، 1977، ص 123.

(3) الحِميري: المصدر السابق، ص 281

(4) ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، م1، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ص ص 443-445، أنظر كذلك: - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج1، دار العلم للجميع، د.ط، بيروت، لبنان، د.ت، ص 77.

(5) ابن خليكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج1، نشر محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1984، ص 360.

(6) الزابيان اسم لنهر بين واسط وبغداد، أنظر: ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 5، دار المعارف، د.ت ، ص 94.

(7) ياقوت الحموي: المصدر السابق، م03، ص 123.

(8) عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، م6، دار ابن حزم، بيروت، 2003، ص 585.

(9) عبد القادر بوباية: الحركة العلمية في منطقة الزاب على عهد بني مزني، المجلة الخلدونية، ع 9، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2011، ص87.

(10) ذكر النميري كلمة قصبة في إشارة إلى قصبة مدينة طولقة، كما ذكر البستاني قصبة بسكرة قائلا "بسكرة كانت أولا للأغالبة ثم الشيعة ثم صنهاجة ثم صارت قصبة بني مزني"، أنظر: - ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 435، أنظر كذلك: - محمد أمين الخانجي: منجم العمران في في المستدرك على معجم البلدان، ج2، مطبعة السعادة، مصر، 1907، ص 131.

(11) شاكر مصطفى: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ج1، ط2، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1997، ص26.

(12) مدينة عريقة في القدم أسست أيام كان الرومان يحكمون بلاد البربر، وخربت بعد ذلك، ثم أعيد بناؤها لما دخلت الجيوش الإسلامية إلى إفريقيا، وهي الآن عامرة كما ينبغي ، وسورها من الآجر النيئ، أرضها تنتج التمر، أنظر:- الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وَ محمد الأخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت، ص ص 138- 139.

(13) حساني مختاري: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 7.

(14) الحِميَري: المصدر السابق، ص 113.

(15) ياقوت الحموي: المصدر السابق، م1، ص ص 36-37.

(16) رفت مدينة بسكرة بأنها قاعدة بلاد الزاب في العديد من المصادر "بسكرة مدينة من آخر الثاني من بلاد الجريد قبالة المغرب الأوسط وهي قاعدة بلاد الزاب، أنظر: - إبن سباهي زادة: أوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك، تحقيق: المهدي عبد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص212.

(17) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص 422-423.

(18) المصدر نفسه، ص 446.

(19) بن قربة، تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد في العصر الإسلامي، دراسة تاريخية أثرية، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009، ص 229.

(20) رياض دعفوس، عصر القيروان "من بداية الإنتشار العربي الإسلامي بإفريقية إلى نهاية الدولة الأغلبية، مطبعة سنباكت، تونس، 2007، ص 28.

(21) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 11.

(22) من بطون مغراوة نجد بنو سنجاس لهم مواطن في الزاب، أنظر:- الحِميَري، المصدر السابق، ص 114، أنظر كذلك:- ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص 46.

(23) ذكر بن خلدون مدينة الدوسن أنها على بعد مرحلتين من لقواط، أهلها من مغراوة، وهي أقصى مدن الزاب في جهة الغرب ولقواط عند ابن خلدون هي ما يعرف اليوم بإسم الأغواط، لمزيد من المعلومات أنظر: - المصدر نفسه، ص 65.

(24) لمصدر نفسه، ص 9.

(25) الحِميَري، المصدر السابق، ص114.

(26) رياض دعفوس، المرجع السابق، ص ص 17-18.

(27) مثال ذلك الروم المقيمين بتهودة زمن عقبة بن نافع الفهري، أنظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص 452، أنظر كذلك: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س.كولان وَليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 28.

(28) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، ص ص50. أنظر كذلك: ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 28.

(29) جاءت العناصر الفارسية إلى إفريقية ضمن الجيوش التي سيرها خلفاء بني العباس لإخماد ثورات البربر وقد إنتشروا في مدينة القيروان وكذلك في القلاع البيزنطية (قابس، بونة،

مجانة، طبنة، باغاية) وذلك بحكم مهامهم العسكرية التي تتمثل في الدفاع عن البلاد وقمع مختلف الثورات. أنظر: - رياض دعفوس، المرجع السابق، ص ص 23- 24.

(30) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب "المسالك والممالك"، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 230.

(31) كان العرب الذين إستقروا في إفريقية والزاب من بداية الإنتشار يكوّنون فئة متميزة على أساس النسب والإسلام وكذلك المكانة السياسية والعسكرية لأنهم كانوا ينسبون إلى مختلف القبائل (مضر، قيس، ربيعة، اليمن وقضاعة) نجدهم خصوصا في المدن مثل القيروان وقابس وصطفورة وطرابلس وتونس والزاب وكانوا يسيطرون على المناصب الإدارية والسياسية الهامة في الدولة (ولاة، عمال، وزراء، قضاة، قواد جند) لذلك مثلوا خطرا خصوصاعلى الإمارة الأغلبية. أنظر: - رياض دعفوس، المرجع السابق، ص ص 22-24.

(32) بن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص 45.

(33) بن قربة، المرجع السابق، ص 231.

(34) فيصل عزام قماش، دراسات في التطور العمراني وتخطيط المدن، مطبعة الإتحاد، دمشق، 1990، ص 27.

(35) الآية...

(36) إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص 98.

(37) مؤلف مجهول، الإستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 171.

(38) البكري، المصدر السابق، ص 230.

(39) نأخذ على سبيل المثال مدينة تهودة لها نهر كبير ينصب إليها من أوراس، فإذا كان هناك خطر خارجي وخاف السكان من مداهمة العدو، أجرو ماء النهر في الخندق المحيط بالمدينة فامتنعوا به وشربوا منه. أنظر: - الحِميَري، المصدر السابق، ص 142

(40) إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص98.

(41) البكري، المصدر السابق، ص 230، أنظر كذلك: الحِميَري، المصدر السابق، ص 114.

(42) جبل أوراس حسب الشريف الإدريسي طوله نحو من إثني عشر يوما وأهله مسلطون على من جاورهم، أنظر: - الإدريسي، نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، المصدر السابق، ص 277.

(43) ذكر ياقوت الحموي إسم تهودة بـ : تَهُوذَةُ بالفتح ثم الضم، وسكون الواو، والذال معجمة : اسم لقبيلة من البربر من ناحية افريقية، لهم ارض تعرف باسمهم، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، م2، ص 6.

(44) يبدو أن جبال الأوراس كانت تغذي بلاد الزاب بالمياه خصوصا المدن الواقعة على يساره، سواء عن طريق عيون دائمة الجريان تنبع من منحدراتها أو ما تجود به المنطقة من جريان الأمطار وثلوج قمم الجبال التي تغذي الأنهار خصوصا النهر الكبير الذي ينحدر من جبل أوراس ويشق غابة بسكرة ويسقي بساتينها ونخيلها، وهو بطول ما يقرب ستة أميال، أنظر: الحِميَري، المصدر السابق، ص 114، أنظر كذلك: - ابن حوقل، صورة الأرض، ط2، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 64.

(45) البكري، المصدر السابق، ص255.

(46) الحِميَري، المصدر السابق، ص 400.

(47) المصدر نفسه، ص 254.

(48) حسب البكري فمدن بنطيوس تختلف عن باقي المناطق الأخرى من حيث نوعية مياه آبارها، التي ذكر أنها مالحة غير عذبة ولا تصلح للشرب، ربما إستعمالاتها للحاجات اليومية كالغسل والتنظيف والسقي والري، أنظر: المصدر نفسه، ص 254.

(49) صاحب الإستبصار، المصدر السابق، ص175.

(50) حول شروط إختيار مواقع المدن وتخطيط مواضعها يمكن الرجوع إلى: - بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، سلسلة كتب التراث، ص 93

(51) صالح يوسف بن قربة، المرجع السابق، ص 16.

(52) هي مدينة على بعد حوالي 24 ميلا من غرب مدينة بسكرة وهي بالقرب من مدينة طولقة.

(53) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 139.

(54) إسماعيل العربي، دولة بني حماد – ملوك القلعة وبجاية – ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 227.

(55) تنتشر واحات بلاد المغرب وسط مجاري الأودية الصحراوية التي تكونت في الزمن الجيولوجي الرابع، ويمكن التمييز فيها بين أربع أنواع بالإعتماد على تقنيات الري: الواحات القائمة على الينابيع التي تنبع في قدم الجبل (واحات بسكرة)، والواحات القائمة على الأودية (واحات الأطلس الصحراوي الجزائري بما فيها الزاب)، والواحات القائمة على فرشة المياه الجوفية (تاسيلي الجزائر)، والواحات القائمة على المياه الإرتوازية (أغلب مناطق صحراء بلاد المغرب) أنظر:

(56) RICHTER (M), les Oasis du Maghreb : typologie et problèmes agro-écologiques, in actes du séminaire : les oasis au Maghreb mise en valeur et développement , c.e.r.e.s, Tunis, 1995, p 29 et 36 .

(57) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 227.

مثال ذلك ما أثبتته التحاليل التي أجراها الفرنسيون عن تربة واحات طولقة أنها زراعية، وذات خصوبة معتبرة، فإذا غضضنا النظر عن الماء والمواد العضوية فهي تحوي على 63% من سلفات الكلس، والتحاليل قدمت النتائج الآتية:

رمل صواني 9.01% ، غضار + فسفات الكلس 7.45%، فوق أكسيد الحديد 1.57% ، كربونات الكلس 9.61%، فسفات الكلس 48.16%، كلورور قلوي 0.78%، ماء + بقايا عضوية 23.64%، أنظر: DUBOCQ .M, Mémoire sur la Constitution – Géologique des Ziban et de l'Oued R'ir, libraires des corps des ponts et de

chaussées des mines, Paris, 1852, p22.

(58) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 229.

(59) عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص 88.

(60) بن قربة، المرجع السابق، ص ص 249- 250.

(61) نجدها أحيانا بِسْكِرَةُ بكسر الكاف ، وأحيانا بَسكَرَة بفتح أوله وآخره، وأحيانا بكسر الباء الموحدة من تحت وقيل بفتحها وسكون السين المهملة وكاف ورآء مهملة وهاء، بين مدينة بسكرة وقلعة بني حماد مرحلتان، وبينها وبين طبنة مرحلة، وتعرف ببسكرة النخيل، حيث قال أحمد بن محمد المروذي: ثم أتى بسكرة النخيل، قد اغتدى في زيه الجميل. أنظر: - ياقوت الحموي، المصدر السابق، م1، ص 422. أنظر كذلك: أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق: رينود وَماك كوكين ديسلان، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 138.

(62) ياقوت الحموي، المصدر السابق، م1، ص 422

(63) مجهول الإستبصار، المصدر السابق، ص 173، أنظر كذلك: الحِميَري، المصدر السابق، ص 114.

(64) مجهول الإستبصار، المصدر السابق، ص 173.

(65) البكري، المصدر السابق، ص ص 254-255.

(66) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 227.

(67) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1922، ص 107.

(68) يبلغ عدد أنواع التمور العادية والرديئة بالجزائر اليوم حوالي 150 نوع من التمر، والغالب على التمور الجيدة بها والأكثر جودة دكلة نور أو دقلة نور، لمزيد من المعلومات أنظر: - حافظي علوي لحسن، الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط، منشورات عكاظ، الرباط، 2011، ص 430.

(69) يبدو أن النوعين الأساسيين السائدين في العصر الصنهاجي خلال القرن 5 هـ / 11 م، هما : البرني – ولعل الصواب البرقي – والصيحاني وقد أضيفت إليهما أسماء أخرى في العصر الموحدي مثل : الخنفس والبهر والليلاري والكسبا والصيحاني، ويبدو أن الكسبا والصيحاني متشابهان فيذكر صاحب الإستبصار أن الكسبا هو المعروف ببلاد المشرق وغيرها بالسيحاني. أنظر: - مجهول الإستبصار، المصدر السابق، ص 173، أنظر كذلك: - حسن حافظي علوي، المرجع السابق، ص ص 277-278

(70) البكري، المصدر السابق، ص 230.

(71) المصدر نفسه، ص52.

(72) مجهول الإستبصار، المصدر السابق، ص 173.

(73) البكري، المصدر السابق، ص ص 254- 255.

(74) المصدر نفسه، ص 230.

(75) مجهول الإستبصار، المصدر السابق، ص 175.

(76) محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع، فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، ج2، دار الكتاب الجديد، د.ت، ص 445.

(77) رشيد بورويبة، رشيد بورويبة: الدولة الحمادية "تاريخها وحضارتها"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 163.

(78) مجهول الإستبصار، المصدر السابق، ص 175.

(79) البكري، المصدر السابق، ص ص 254-255.

(80) الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة "تحفة الأظار في فضل علو التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، 1983ص ص 117- 118.

(81) صالح يوسف بن قربة، المرجع السابق، ص ص 251.

(82) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 422.

(83) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 139.

(84) [1]- مختاري حساني، المرجع السابق، ص 5.

(85) صالح يوسف بن قربة، المرجع السابق، ص 25.

(86) يذكر الشريف الإدريسي وهو من علماء القرن السادس الهجري، أن من باغاي إلى مدينة قسطيلية أربع مراحل، وهي تسمى توزر، ولها سور حصين وبها نخل كثير جدا وتمرها كثير يعم بلاد إفريقية، بقولها كثيرة موجودة متناهية في الكثرة والجودة، وماؤها غير طيب، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص 278.

(87) الحبيب الجنحاني، الحياة الإقتصادية والإجتماعية في سجلماسة عاصمة بني مدرار، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، 2000، ص152.

(88) رياض دعفوس، المرجع السابق، ص 23.

(89) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 422.

(90) البكري، المصدر السابق، ص 230.

(91) ياقوت الحموي، المصدر السابق، م1، ص 422.

(92) الحِميَري: المصدر السابق، ص ص 400-401.

(93) بادِس بكسر الدال المهملة وسين غير معجمة، إسم لموضعين بالمغرب، أحدهما موضع من فاس أي بادس فاس على البحر قرب فاس، وثانيهما بادس الزاب، وبادس الزاب حسب البكري حصنان، بينها وبين تهودا مرحلة وبينها وبين نفطة مرحلتان عبر قيطون بياضة، وأضاف الحميري أن لها جامع وأسواق، وبادس من المدن التي شكلت نوعا من الحصون، وستبقى هذه المدينة محافظة على حصانتها ودورها إلى غاية عهد الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري، وحسبه تقع المدينة أسفل طرف جبل أوراس على بعد ثلاث مراحل من بسكرة، وتحكم العرب سيطرتها عليها، وتمنع أهلها من الخروج عنها إلا بخفارة رجل منهم، وتعد بادس مع مدينة تهودة أعظم مدائن المغرب أنظر: - البكري: المصدر السابق، ص 230، أنظر كذلك: - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 317.

أنظر كذلك: -الحِميَري: المصدر السابق، ص 75، أنظر كذلك: - الإدريسي الشريف: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، صححه: هنري بيريس، دار الكتب، الجزائر، 1957، ص66، أنظر كذلك: - الطاهر طويل: المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإعلامية، الجزائر، 2011، ص 109.

(94) البكري: المصدر السابق، ص 743، أنظر كذلك: - الحِميَري: المصدر السابق، ص 75، أنظر كذلك: - الطاهر طويل: المرجع السابق، ص 109.

(95) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 175.

(96) ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ص ص 28-29.

(97) مجهول الإستبصار: المصدر السابق، ص 174.

(98) البكري: المصدر السابق، ص 254.

(99) المصدر نفسه، ص 230.

(100) يذكر الرحالة الإسباني مارمول كربخال أن مدينة بسكرة أعاد العرب بناءها بعدما تعرضت بعض معالمها للدمار، وأحاطوها بأسوار من الآجر. أنظر: - مارمول كربخال: إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، 1989، ص 168. أنظر كذلك: - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 422.

(101) مجهول الإستبصار: المصدر السابق، ص 174

(102) صالح يوسف بن قربة: المرجع السابق، ص ص 226- 227.

(103) مجهول الإستبصار: المصدر السابق، ص 175.

(104) المصدر نفسه، ص 174.

(105) ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ص 28.

(106) البكري: المصدر السابق، ص 230.

(107) الحِميَري: المصدر السابق، ص 114.

(108) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج1، ص 26.

(109) مجهول الإستبصار: المصدر السابق، ص ص 174-175.

(110) أنظر:- ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق ، ص 28. أنظر كذلك: - مجهول الإستبصار: المصدر السابق، ص3.

(111) ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ص 28.

(112) علي ثويني: معجم عمارة الشعوب الإسلامية، بيت الحكمة، بيروت، 2005، ص 670.

(113) المرجع نفسه، ص 57.

(114) مدينة بسكرة كذلك سكنها المولدون وحولها وجدت قبائل البربر سدراته ومغراوة، أنظر: - الحِميَري: المصدر السابق، ص 114.

(115) رشيد بورويبة: المرجع السابق، ص ص 160- 163.

(116) نتيجة إستقرار جاليات عربية بمنطقة الزاب عموما ومدينة طولقة خصوصا، ظهر عنصر المولدين الناجم عن التزاوج بين الأهالي والعرب أنظر: - محمد حسن: المرجع السابق، ص 15.

(117) البكري: المصدر السابق، ص 230.

(118) ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ص 28.

(119) المصدر نفسه، ص ص 422- 423.

(120) كان يقوم بخدمة الحمام في الغالب خمسة أشخاص على الأقل: حمامي، وقيم، وزبال، ووقاد، وسقاء وكان الوقود في الغالب من الزبل اليابس، وحول مخطط الحمام عادة ما يؤخذ بالحسبان التدرج الحراري لحجرات الحمام وإضفاء أجواء الراحة، ويتكون الحمام التقليدي من الفضاءات المعمارية التالية: القميم أو القمين أي بيت النار في الحمامات القديمة، البراني وهي غرفة خلع الملابس لتهيئة الشخص للدخول إلى الحمام وحرارته تكون عادية، الوسطاني حرارته أعلى من البراني، وهو مكتن لتجهيز الداخل إلى الجواني

بالأغطية والأدوات اللازمة للحمام، وكذلك لإعطائه الحرارة اللازمة للجواني وكذلك بالعكس لتهيئة الشخص الخارج من الجواني إلى البراني، والجواني مكان الحمام وهو دائما عالي الحرارة ويضم مجموعة من المقصورات. أنظر: - علي ثويني: المرجع السابق، ص 280.

(121) يتميز تخطيط الفنادق في الغالب على حوش سماوي مستطيل أو مربع تربط فيه الأنعام وتكدس به البضاعة، تحيط به الحجرات لسكن الرواد على طابق أو أكثر، ويحوي في العادة على مطبخ وحمام ومقهى ومسجد صغير ودكاكين ومكتب إداري لمزيد من المعلومات أنظر: - المرجع نفسه، ص ص 290-291.

(122) جاء وصف حجم فنادق تهودة بالكبار حسب ابن عذارى المراكشي دليل على أهمية المدينة تجاريا وأنها نقطة مهمة في إقامة التجار. أنظر: - ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ص 28.

(123) المصدر السابق، ص ص 28-29.

(124) البكري: مرجع سبق ذكره، ص 230.